الحرية في منظار الايزوتيريك

جميعنا طالب ويطالب بالحرية، والعديد منا قتل او اسر او استشهد لينعم ببريق لمعان اسمها، لاننا دونها لا نستطيع ان نحيا فهي تشبه الهواء النقي الذي يدخل الرئتين ليغذي كياننا وليتقي دمنا من الشوائب التي علقت به. كما ان همسها يسمح بحرية الرأي والتعبير وحرية طرد المحتل وحرية اتخاذ مواقف معينة والتصرف كما يحلو لنا! وكاننا اصبحنا ملمين واعين لابعاد الحرية، بينما نحن لا زلنا نسعى لكشف مجاهلها واسرارها المتعددة.

لكن من جهة اخرى نلاحظ ان كثيرين من البشر يعتقدون انهم ينعمون برفاهية العيش ويحيون بحرية واطمئنان، من جراء وجود انظمة سياسية ترعى حقوقهم، على رغم احتوائها على قيم لا اخلاقية شاذة حرمتها الاديان، وذلك فقط للتبجح بنعم الحرية المزيفة. كما ان البعض الاخر تدثر باردية وتيارات فكرية عديدة ظانين بذلك ان منطق الحرية يسمح لهم بتلك التعددية البعيدة كل البعد عن حب التآخي والتآلف بينما الحرية براء من كل ذلك لانها فعل اكتساب لمبادىء وقيم اخلاقية وانسانية ومن ثم ولوج مرحلة متطورة من الوعي.

اذ حينما كان الوجود مطلقا... كانت الحرية مطلقة، وبتعبير اخر مبهمة. لان ادم او الانسان الكامل لم يكن يعي طبيعتها. لكن بعد ان ظهرت حواء الى الوجود، بات للحرية معنى ووجود، لان كلا المرأة والرجل سعى للاكتمال بالاخر من خلال الحب والزواج. فالرجل شعر بالنقصان دون تواجد المرأة، والمرأة ايضا لازمها شعور الوحدة دون الرجل.

يذكر كتاب المرأة والرجل في مفهوم الايزوتيريك، منشورات اصدقاء المعرفة البيضاء: ادم هو الانسان الكامل في البداية، ادم الذكر والانثى معا. اما الرجل والمرأة فهما حصيلة لاحقة. يقول الاصحاح الخامس من سفر التكوين في عدد ٢١ بما لا يترك مجالا للالتباس، يوم خلق الله الانسان، على مثال الله صنعه، ذكرا وانثى خلقه، وباركه وسماه ادم يوم خلقه. لكن عبر مر الازمان سعى كل واحد منهما ليفرض سيطرته على الاخر الى ان نجح الرجل بذلك. فسعت عندئذ المرأة الى التحرر من غطرسة الرجل وتسلطه، ايضا الرجل الذي لم يستطع تحقيق اهدافه ومبادئه ضمن عائلته ومجتمعه، وتبعه بذلك كل شعب او عرق او طائفة لم يعد بمقدورهم التعبير عن ارائهم والتصرف بحرية. فاصبحوا كانهم محتلين فكريا وعاطفيا وحتى ماديا من خلال احتلال ارضهم او عبر منعهم من ابداء ثقافتهم وعلومهم.

فنادوا جميعا عندئذ بالحرية عندما شعرا بفقدانهم للوعي الذي كانوا ينعمون به قبل عملية انشطار الانسان الكامل (آدم الاول) مما حدا بالبعض الى اعلان الثورات والحروب والجهاد وايضا المظاهرات بغية استرجاع استقلالهم وحزبتهم المسلوبة. وما معاناة الشعب الفلسطيني الا اكبر برهان على صدق ما نقول، اذ قد ضحى البعض منهم بارواحهم لاجل طرد المحتل عن ارضهم التي سلبهم اياها.

ما اعظم اعمالك يا انسان! حينما تعي ان الحرية هي انعتاق من هيمنة التشبث بالرأي والعناد والجهل لاجل تحرير الانسان من عبودية اللاوعي لكي نبلغ حكمة المعرفة-جنة الوعي!...

وما انجس اعمالك يا انسان حينما تدعي ان حريتك سمحت لك بارتكاب اشنع الاعمال وتدنيس المقدسات والتعدي على الحرمات، مما جعلك تحيا في جحيم نارد مستعرة ليل نهار، تلسع قاطنيه بنار الحقد والبغضاء ممتدة لتطال جمال الطبيعة الاخاذ.

بينما الحرية في اصلها هي التحرر من عبودية المادة، واسترجاع الوعي الذي فقدناه، حينما شطر الكيان الانساني الى نصفين، امرأة ورجل. فكان علينا ان نعاني ونجاهد ونناضل بغية العودة الى ما كنا عليه من تطور بالوعي، لاجل استرجاع صورتنا الالهية التي شوهت من جراء الانشطار والابتعاد عن حقيقتها الالهية.

فحينما تصبح صورتنا مشابهة له عز وجل، عندئذ ننعم بحرية لا مثيل لها على الارض، لانها لا تكون مهداة لنا، بل تكون نتيجة تطور بالوعي عزمنا لبلوغه.

الحرية كما يفهمها انسان الايزوتيريك، قبس من نور، شعلة الهية لا ينطفىء نورها ابدا، هي حكمة منطق وعطاء بغية الوصول الى مستوى مرتفع من الوعي، وقودها معرفة غوامض الكيان الانساني، شرارتها محبة عطاء المعرفة لاجل انقاذ البشرية من الجهل المطبق الذي يمنعها من التآخي والانصهار فيما بينها. اشراقتها تطبيق ثم تطبيق للمبادىء الانسانية التي تقود الى التكامل الانساني من خلال الحب المتناغم والمتجانس وعيا بين الجنسين بغية اكتساب الحكمة التي تمنحنا حرية واعية بناءة تنقذنا من اللاوعي الذي يحتل معظم كياننا. لان مطلق الحرية هي المحبة والتي تكتسب بالحب الواعي بين المرأة والرجل لاجل تفتيح مكوناتها الباطنية... مما يؤهلهما لوعي ابعاد الحرية.

اذ كلما ارتفعت نسبة وعينا توسعت معها حريتنا لتطاول مجاهل وابعادا لا منظورة تمثل حقيقة وجودنا... لان لا معرفة دون محبة ولا حرية واعية دون حكمة.

هذه الحرية الايزوتيريكية ستجمع البشرية في بوتقة واعية هادفة الى الاتحاد في موئل الحرية العظمى.

فليكن العطاء على قدر المحبة... ولتكن المحبة على قدر الوعي... وليكن الوعي على قدر الطموح! كما يذكر كتاب مناجاة القلب والوعي منشورات اصدقاء المعرفة البيضاء، لاجل بلوغ نهضة الحرية.

ولتباركنا ذواتنا بقداسة وعيها، وطوبى لكل من نسي حريته واسر نفسه طوعا برداء الجسد، لينعم اخوته في البشر بالحرية المثلى!

المهندس طوني عبد النور
استاذ في الجامعة اللبنانية